مِعطفُ الرماد جسدُ الضوء لـِ بسمة الصيّادي:
قراءة في المجموعة الشعريّة
بقلم الدكتور محمّد توفيق أبو علي

الدكتور محمّد توفيق أبو علي يتوسّط الدكتورة هدى معدراني (يمينًا) والشاعرة بسمة الصيّادي (يسارًا)

من المألوف المعتاد، أن يبدأ الكلام على الكتاب من عنوانه؛ ولكنّني سأخرج عن هذا النسق، مبتدئًا بما قبل الغلاف؛ متوقّفًا عند مَن جَمَعَ الأشتات، وأحسنَ توليفها، حتّى استوت كتابًا، نجتمع حول مائدته اليوم؛ وأعني بمن جمع وأحسن التوليف السيّدة رولا مظلوم لبّس، والدكتور جوزف لبّس اللّذين إليهما يرجع الفضل في أن يبصر هذا الكتاب النور!

وأعود إلى الكتاب، لأعاين الشعر فيه، معاينة عجلى تتناسب مع ضيق الوقت المتاح.

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٥ أبريل ٢٠١٥

www.aslim.ma

يجب أن أحدّد، أوّلًا، معياريّة الشعريّة في هذا الكتاب؛ فهي، بداءة، ترتبط عندي بمصطلح «النثيرة» أي ما اصطلح عليه عند الكثيرين بـ «قصيدة النثر».

والشعريّة هذه في هذا السياق، تقوم على عدّة عناصر، منها شفافيّة الغموض، والحميميّة التي تسبغها على المتلقّي نمطيّة الإسناد في العبارة؛ والدهشة القائمة على غرابة الصورة، وأُلفتها، في آنٍ معًا؛ وهذه الصورة في النصوص عمومًا، كما تبدّت لي، هي تجريد حسّيّ، يلتصق بالواقع، ويصعد به من الحسّ إلى ما فوق الحسّ.

والشعريّة، في نصوص هذا الكتاب، تقوم على ضربٍ من الهمس الذي ينأى عن التطريب؛ وهو، على نحوٍ ما، مزيجٌ من الموسيقى الداخليّة، والموسيقى الخارجيّة الخافتة؛ وهو همسٌ يسعى إلى إقامة التناغم بين إيقاع النفس وإيقاع اللفظ، بعيدًا من هواجس العَروض.

وأبدأ بالعنوان: **مِعطفُ الرماد...جسدُ الضوء**: الرماد: موتٌ وانبعاث، يتجسّدان في جسدٍ يموت ويحيا، هو الضوء!!!

والرماد طائر الفينيق يغرّد شجنًا!!!

وأدخل الكتاب، فتستقبلني مفارقة جميلة: الكتاب في جزأيْه الأوّل والثاني يكاد يكون نثيرة من الشّعر المصفّى، ما خلا شذراتٍ قليلة شردت، محتفظة عن عمدٍ بنثريّتها الصلدة؛ لكي تبلّغ رسالة ما.

ويغلب على المجموعة التأمّليّة طقسٌ يبوح بأحوال من الوجد؛ الأمر الذي يجعلني أقترح أن يصار في الطبعة الجديدة إلى إعادة توليف هذه الخواطر، بدمج قسط وافر منها بالمجموعة الشعريّة، بعد شيءٍ من التشذيب اللطيف، يجعلها نصًّا عرفانيًّا صوفيًّا، واضح السمات.

وسأختار نصًّا شعريّا واحدًا، أمرّ به في هذه العُجالة، ويكون نموذجًا عمّا يختزنه هذا الكتاب من إبداع.

«قَدَر الأرصفة»

هذا الرصيف لن يعرف السُّبات

حتّى يهدأ حزن العابرين

ولو برهة...

أشعر بالذَّنْب

كلّما عبرتُه بظلّي

وألقيتُ فوقه

قصيدة بين كلمتَيْن

كلّما اقتحمتُ

سَكينةَ خُطوةٍ

اختبَأت بين حجرَيْن

بين ذاكرتَيْن...

لأجعلَها مثلي

عبرتُ من هنا ..

وكنتُ يوماً ما كنت

وهجَ الغبار

نبرةَ الصدى

تحمل النار

لطقوس القبيلة

شَفَقةَ غيمة

على زهرةٍ ذبُلت

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٥ أبريل ٢٠١٥

www.aslim.ma

احتراقَ الصمت
أمام ثرثرة المطر!
كنتُ يوماً ما كنت
لغةً.. وجهاً
هيكلًا... طيناً
حجراً من صُلْب
هذا الرصيف
خطوةً طويلة
من التهجئة الأولى
حتّى آخرِ العناوين..
وكلّ العناوين أنا
وإن غاب اسمي
وحين ننتهي
عند مفترق التوقيع الأخير
سوف أبقى...
رذاذاً بين سطرَيْن
استنفدا منّي.. كلّي...
وبعضاً من عمر الرصيف!

يشبّه لي أنّ هذا النصّ يشتمل على ثلاث أحوال:

- الحال الأولى:من المطلع حتّى «قوسين».
- الحال الثانية: من «عبرتُ» حتّى «حجرًا من صلب».

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٥ أبريل ٢٠١٥
www.aslim.ma

– الحال الثالثة: من «هذا الرصيف» حتّى آخر النصّ.

أمّا الحال الأولى، فهي تجسّد حالة السكينة السلبيّة المستسلمة، وتبدأ بالجملة الاسميّة التي تصف هيمنة السكون: هذا الرصيف لن يعرف السبات، ثمّ يبدأ الحراك الصامت، مشروطًا بهدوء حزن العابرين؛ متكّئًا على نغميّة لسكونٍ مسبوق بياء مدّ أو لين. (العابرين،كلمتين،حجرين، قوسين)

يبدأ الإيقاع أفقيًّا هادئًا، وشيئًا فشيئًا يبدأ الانغراز عموديًّا، متوسّلًا نغميّة قائمة على وحدة موسيقيّة، قائمة على متحرّك فساكنَيْن، آخرهما حرف لين.

ومن المدّ في المستهلّ إلى اللين في المستقرّ، ترنيمة من الوجع الجميل.

وتأتي الحال الثانية، لتجسّد الصخب والتمرّد؛ في ترجيعٍ لصدى حركيّة الغبار، يجمع إلى الخصب النار، فيصطلي الصمت المبلّل بالمطر، دمعةً حرّى على زهرة ذبلت، لكنّها حرّكت في الأعماق توقًا إلى الخلاص.

ثمّ ترد الحال الثالثة لتشهد للخلاص، سكينة خصب ورذاذًا للكلمات المكابرة، تشكّل ضفّتي سطرَيْن؛ يشيران إلى الرضا بسلام داخليّ، حتّى وإن كان مسكونًا بشيء من الوجع!!!

وبعد، فهذا الكتاب أفقٌ يشهد للإبداع، ومعْلمٌ نحو كتبٍ أخرى قادمة!!! وستظلّ كليّة الآداب منجمَ المواهب، وموعدًا لكلّ وعدٍ مخصب!!!

******

نُشر المقال بموقع محمد أسليم، يوم ٢٥ أبريل ٢٠١٥، على الرابط:
http://www.aslim.ma/site/articles.php?action=view&id=448